

جِئْنَاكَ الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ



د. طه عابدين طه

أستاذ التفسير وعلوم القرآن
بجامعة أم القرى - بمكة المكرمة



جِلالك

القرآن الحكيم

لاد. طه. عابدين طه



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



المقدِّمة

الحمد لله الذي خصَّنا بخير كتاب أنزله، على خير رسول أرسله، لخير أمة أخرجت للناس، هداًنا به من طرق الضلال، وبصَّرنا به من عمى البصائر، وشفانا به من عيِّ الجاهلية، فكان نوراً، وهدى، وشفاء، ورحمة.

والصلاة والسلام على نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كان علمه القرآن، وتعليمه القرآن، ودعوته إلى القرآن، وخُلِّقَ القرآن، ووصيته القرآن، وميراثه القرآن، وعلى آله الطيبين، وصحبه الصادقين، ومن سار على هديهم إلى يوم الدين.. أما بعد:

فهذه رسالة مختصرة في بيان عظمة القرآن الكريم وجلاله وجماله، ومغانمه لأهله، اخترت لها عبارات سهلة، وأدلة واضحة، واختيارات موضوعية متنوعة متناسقة، جعلتها روضة غناء، روحها وريحانها من عبق الذكر الحكيم، قطفها دانية للمؤمنين، تُعمِّق إيمانهم بكتاب ربهم، وتحفزهم لتلاوته، وتدبره، والعمل والتمسك بهديه، فهو خير كلام يتلى، وأفضل علم يتعلم، وأهدى نور يستضاء به، وخير شفاء لكل داء، من

اتَّبَعَهُ هُدًى وَسَعِدَ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ضَلَّ وَشَقِيَ، فَالْمَوْفُوقُ مِنْ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَى لِصَحْبَتِهِ، وَجَعَلَهُ رِياضَ قَلْبِهِ، وَمَتَعَهُ بِبَصَرِهِ، وَنَوَّرَ بِبَصِيرَتِهِ.

كُتِبَتْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ خِلافًا لِمَا دَرَجَتْ عَلَيْهِ فِي كُتُبِي وَأَبْحَاثِي؛ الَّتِي كُنْتُ كَثِيرًا مَا أَتَعَمَّقُ فِيهَا، وَأَقْصِدُ بِهَا ذَوِي الِهْمَمِ مِنَ الْمُخْتَصِمِينَ؛ أَمَّا فِي هَذِهِ المَرَّةِ فَقَدْ اتَّجَهْتُ إِلَى عَمَلِ لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ مُسْلِمٌ، عَرَبِيًّا كَانَ أَوْ أَعْجَمِيًّا، صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا، ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى، فَكَانَتْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ الَّتِي أَفْرَغْتُهَا إِفْرَاغًا مِنْ قَلْبِي، بِطَرِيقَةٍ بَيَانِيَّةٍ مُوجِزَةٍ، يَجِدُ كُلُّ قَارِئٍ فِيهَا - بِإِذْنِ اللهِ - بَغِيَّتَهُ، لِتَزِيدَهُ مَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا، وَتَجْجِيلًا وَيَقِينًا، وَبَصِيرَةً لِكَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَإِنَّ التَّبْصِيرَ بِعَظْمَةِ الْقُرْآنِ وَجَمَالِهِ، وَتَحْبِيبِهِ لِلنَّفُوسِ، وَسَوْقَ الْعِبَادِ إِلَى هُدْيِهِ، وَالْعَمَلَ بِهِ، وَتَرَكَ الإِعْرَاضَ عَنْهُ وَهَجْرَانَهُ، مِنْ أَعْظَمِ القُرْبَاتِ فِي الحَيَاةِ.

فَنَسْأَلُ اللهُ تَعَالَى صَدَقًا يُحَقِّقُ القَبُولَ، وَتَوْفِيقًا يُسَدِّدُ الخَطِيئَةَ، وَبَرَكَتَةً بِهَا يَكُونُ عَظِيمُ الأَثَرِ وَالنَّفْعِ، إِنَّهُ هُوَ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالقَادِرُ عَلَيْهِ، وَهُوَ عَلِيُّ مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ، نَعَمُ المَوْلَى وَنَعَمُ النَصِيرُ.



كلام الله جَلَّالُهُ

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

أول ما ينبغي أن يصفح قلب المؤمن في الإيمان بالقرآن الكريم؛ الإيمان بأنه كلام الله، ليكون عند توجهه إليه مستمعاً لتلاوته، أو مرتلاً له، أو متدبراً لآياته، مستشعر أنه مقبل على أسمى وأصدق وأكمل وأعدل وأجمل حديث في الوجود، فليس هنالك أصدق منه خيراً، وأعدل منه حكماً، وأكمل منه تشريعاً، فهو خير حديث تحفظه الصدور، وتردده الألسن، وتتفكر فيه العقول، وتتعلمه وتهتدي به الأجيال، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَتَيْهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

كيف لا يكون كذلك؟ وهو كلام خالق الإنسان، ومبدع الأكوان ومديرهما على مر الدهور والأزمان، الذي

لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وسع كل شيء رحمة وعلماً وحكمة، الغفور الودود، القوي العزيز، الملك الكبير، قال تعالى: ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى ٥ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ٦ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِأَقْوَالِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ٧ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ٨﴾ [طه: ٤-٨]، كلام من له الأسماء الحسنى والصفات العلى، المنزه عن النقص، المتصف بصفات الكمال، والجلال والجمال في الأقوال والأفعال، العلي العظيم، فمن فكَّر -وهو- يتصفح القرآن ويتلوه بأنه كلام الله؛ قدَّر كل حرف منه حقَّ قدره، وتعامل معه بمسؤولية منقطعة النظير.

فمن يقبل على القرآن -وقد رسخت فيه هذه العقيدة- أثمرت مباشرة في قلبه معاني الهيبة والإجلال، والتقديس والمحبة والجمال؛ فيخشع قلبه، ويلين جلده، وتخضع جوارحه، ويكون ممن قال تعالى فيهم: ﴿تَقَشَّعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ٢٣﴾ [الزمر: ٢٣]، وضعف هذه العقيدة في النفوس هو الذي

أضعف مباشرة؛ التعظيم والمحبة والاتباع لكلام الله، فمن أراد أن يحسن التعامل مع القرآن؛ فليأت إليه من باب الإيمان بأنه كلام الله صدقاً وحقاً؛ ليزداد بعد ذلك بتلاوته وتدبره رسوخاً وهدى، فعظمة الكلام من عظمة المتكلم؛ فلا أعظم من الله تعالى، ولا أعظم من كلامه.



عليّ مكنون

وقال تعالى: ﴿حَمَّ ۙ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۙ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۙ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۙ﴾ [الزخرف: ١-٤].

القرآن الكريم رفيع القدر، سامي المنزلة، عالي المكان، معظم الجنب عند الله تعالى، حيث صدر في اللوح المحفوظ فوضع في أعلاه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۙ﴾، وقد أخبر سبحانه وتعالى بذلك حتى يدرك العباد منزلة هذا الكتاب، وفضله وشرفه، وعلو قدره.

ثم بين ما حظي به من تمام الرعاية، وكمال الصيانة، والحفظ في الملاء الأعلى، حتى يتأسى العباد بذلك المحفل الطاهر من الملائكة المقربين؛ بل هم أولى بإكرامه وتبجيله واتباعه، وأحرى حيث أنزله الله تعالى إليهم، وشرفهم به، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۙ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۙ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۙ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۙ﴾ [الواقعة: ٧٦-٨٠]،

وَبَيَّنَ شَرَفَ الصَّحْفِ الَّتِي كَتَبَ فِيهَا بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ، قَالَ
تَعَالَى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾
كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١٢-١٦].

فمن تأمل في هذه الآيات، وجال فيها بخواطره، أدرك
قيمة ومكانة هذا الكتاب الذي بين أيدينا، وأنه ينبغي أن
يصان في مكانه الذي يوضع فيه، والأوراق التي يكتب عليها،
والأيدي التي تحمله، والصدور التي تحويه، فهو كتاب عليّ
المنزلة، فوق ما يتصوره البشر، ومن أدرك ذلك أدرك عظمة
النعمة، وضخامة الهبة الربانية على عباده بإنزال هذا الكتاب
المجيد، بما ينبهنا عن غفلتنا في حقه، وتقصرنا عن القيام بما
يجب علينا تجاهه، وأنَّ المعرضين عنه والمستهزئين به؛ هم
الخاسرون في الدنيا والآخرة.

ولمَّا للقرآن من القداسة والعظمة؛ شُرِعَتْ أَحْكَامٌ خَاصَّةٌ
تتعلَّق بتلاوته وتعلُّمه، فعلى مراعاتها تحقيقاً لرعاية قدسيته
ومنزلة: من الطهارة، والاستعاذة، والبسملة، والترتيل والإنصات،
وغيرها، وقد صنَّف العلماء المصنِّفات في آداب حملته.



جلال النزول

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطَلَعِ الْفَجْرِ ۝﴾ [القدر: ١-٥].

لَمَّا أَرَادَ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ أَنْ يُبَلِّغَ كَلَامَهُ لِعِبَادِهِ، أَنْزَلَهُ بِمَا يَدِلُّ عَلَىٰ هَيْبَةِ وَجَلالِ، بِطَرِيقٍ وَكَيْفِيَّاتٍ مَعِينَةٍ، مِنْ تَدَبُّرِهَا عِلْمِ عَظَمَةِ وَقَدْرِ وَفَضْلِ هَذَا الْكِتَابِ الْمَجِيدِ: فَقَدْ أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي خَيْرِ أَشْهُرِ الْعَامِ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۝﴾ [البقرة: ١٨٥]، فِي أَبْرَكِ لَيْلَةٍ فِيهِ، وَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝﴾ [الدخان: ٣]، وَابْتَدَأَ نَزُولَهُ فِي خَيْرِ بَلَدَةٍ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، أَمَّ الْقُرَىٰ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُكًا مُّصَدِّقًا لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۝﴾ [الأنعام: ٩٢]، أَنْزَلَهُ بِوَسْاطَةِ أَعْظَمِ

مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ
عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾
[التكوير: ١٩-٢٢]، أَنْزَلَهُ عَلَى خَيْرِ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ لِأَهْلِ
الْأَرْضِ، أَصْدَقَهُمْ لَهْجَةً، وَأَوْفَرَهُمْ عَقْلاً، وَأَحْسَنَهُمْ خُلُقاً،
وَأَطْهَرَهُمْ قَلْباً، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ
فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ [البقرة: ٩٧]، أَنْزَلَهُ عَلَى خَيْرِ
أُمَّةٍ أَخْرَجَتْ لِلنَّاسِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ
لِلنَّاسِ ﴿١١٠﴾ [آل عمران: ١١٠]، وَأَنْزَلَهُ بِخَيْرِ لُغَةٍ فِي الْبَيَانِ
وَالْإِيضَاحِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٣﴾ نَزَّلَ بِهِ
الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ
مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

كل هذه الاختيارات المتنوعة: زماناً ومكاناً ومَلَكاً
ورسولاً وأمة ولغة، تدل على عظمته، تُذَكِّرُ بِفَضْلِهِ، وترشد
إلى هديه، وتَحْتُّ عَلَى تَعَلُّمِهِ؛ بل من فَكَّرَ فِي رِسَالَةِ أَرْسَلَهَا لَهُ
مَلِكٌ مِنَ مَلُوكِ الْأَرْضِ، أَوْ قَائِدٌ مِنَ قَائِدَةِ الدُّنْيَا الْكِبَارِ، وَجَاءَ
وَزِيرُهُ الْمُقَرَّبُ يَحْمِلُهَا وَهُوَ يَمْشِي إِلَيْهِ مَسِيرَةَ عَامٍ، كَيْفَ

سيكون استقباله للرسالة وما فيها، والرسول القادم إليه؟!
والقرآن رسالة مَلِكِ الملوك، جاءت إلينا من مسيرة آلاف
السنين، يحملها أشرف الرسل من الملائكة، لأشرف رسل
الأرض ليلبغها لنا، في أشرف ليلة، قال تعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي
الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ
خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٣-٤].



قول ثقيل

قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ يعني: كلاماً عظيماً جليلاً نفيساً ثابتاً راسخاً كريماً، أو صافه جليلة، وطلعته مهيبة، كيف لا يكون كذلك وهو كلام رب العالمين؟! وثقله ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ثقل حسي: ظهر ذلك عند نزوله ووحيه على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كان يلقي عند نزوله شدة، فيتفصّد جبينه عرقاً في الليلة الشاتية، ويثقل جسمه ثقلاً شديداً، وتبرك ناقته، ولَمَّا أوحى إليه وفخذه على فخذ زيد بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرُضَّ فَخِذِي»، كل ذلك صَحَّتْ به الأحاديث والآثار، وثقل في الميزان يوم القيامة، وثقل من خلال قوة تأثيره، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

القسم الثاني: ثقل معنوي: فهو ثقيل لِمَا له من وزن

ورجحان، وصِحَّة وبيان، ألفاظه عذبة، وجمله بليغة محكمة، ومعانيه بَيِّنَةٌ مثمرة، وهداياته عظيمة نافعة، شملت جميع العقائد والفرائض والحدود والأحكام، وفوق ذلك هو منزّه عن اللغو والعيوج وسفاسف القول، قال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، وهو كذلك ثَقِيلٌ عَلَى الْعُقُولِ أن تحييط بكنهه معانيه، وفوائده وهداياته، وثَقِيلٌ فِي الْعَمَلِ به في حدوده وفرائضه إلا من يسره الله تعالى عليه فهو ميسر، وهو ثَقِيلٌ عَلَى الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ؛ لأنه كشف أسرارهم وأستارهم وعبوبهم، وأعجزهم وتوعدهم، وفزع قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِئِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

فمن لم يحس بثقل كلام الله تعالى - وهو يتلوه ويتدبره ويتبعه - فليراجع إيمانه، فإن إحساس المؤمنين بذلك؛ هو الذي أثمر ما وصفهم الله تعالى به في قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (١٦) قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾

وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخْرُجُونَ لِلأَذْقَانِ
يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿[الإسراء: ١٠٦ - ١٠٩]، ومن أدرك
ثقله أدرك عظم الأمانة التي طوّقت به في عنقه، قال تعالى:
﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ
يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾
[الأحزاب: ٧٢]، فسارع في معالجة ظلم نفسك بالبعد منه
والجهل بما جاء فيه، حتى تقوى على حمله.



لا ريب فيه

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

من أصول الإيمان التي ينبغي أن تكون راسخة في القلوب؛ كرسوخ الجبال على الأرض، الإيمان بأن القرآن الكريم لا ريب فيه من رب العالمين، فليس بقول شاعر ولا كاهن ولا ساحر، أو مما تخرَّصه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو نقله من كتب الأولين، قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ٢]. ونفَى الريب عنه هنا عام؛ لأنها نكرة في سياق النفي تفيد العموم، فهي تشمل جميع أخباره وأحكامه وهديه، وكل آية وحرف منه، فلا مجال للريب فيه، قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، كما يشمل نفَى الريب عن حججه وبراهينه التي كلها دلائل صدق ويقين، ويستلزم نفَى الريب هنا الشهادة باستمرارية صحة مصدره، وكمال هديه، وبنات حججه، وعصمته من النقص والخلل،

فلا مجال للريب فيه بأي وجه من الوجوه، في كل زمان ومكان، وهو بذلك تميز عن غيره من الكتب المنزلة الأخرى التي لم تسلم من الريب؛ لما حدث فيها من تحريف.

ومن ارتابوا في مصدره، أو في شيء مما جاء فيه، فهم إمّا قوم جهلوا حقيقته، وكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩]، أو عرفوا حقيقته؛ لكنهم أعرضوا تعنُّداً واستكباراً، أو اتبعوا أهواءهم فباعوا دينهم بعرض من الدنيا قليل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمناً قليلاً وَإِنِّي فَأْتُقُونَ﴾ [البقرة: ٤١].

وقد خاطبهم الحق تعالى بما يقطع شبهة الريب من قلوبهم، من خلال بيان إعجازه الذي ينفي نسبه لغيره **جَلَّ وَعَلَا** بصورة قاطعة، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤]، ليسجل من خلال ذلك عجز العرب أولاً عن معارضته بأقصر

سورة منه، ويكون ذلك برهاناً قاطعاً عن عجز غيرهم من باب أولى، ونفي الريب عنه يستلزم الثقة التامة بمصدره، والطمأنينة بكل ما ورد فيه أنه حق وصدق وعدل، مع التحاكم إليه، والتسليم المطلق له، والقبول الكامل لهديه.



مصدق ومهيمن

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

لما أراد الله تعالى أن يختم الرسل والرسالات، ختمها بهذا الكتاب العزيز الذي جعله الله تعالى مصدقاً لما قبله من الكتب، ومهيماً عليها، وناسخاً لكل دين غير الإسلام، فصدق الكتب التي أنزلت على أنبياء الله، كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها، حيث دعا إلى كل ما دعت إليه تلك الكتب من أصول الاعتقاد والأخلاق والعبادات، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

ومهيمن عليها؛ حيث كان هو المصحح والمصوب لما حدث فيها من تحريف، فما صدقه القرآن مما جاء في الكتب السابقة فهو الصدق والحق، وما كذبه فهو الكذب والباطل، وإن اعتقد أصحابها خلاف ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ

أَلَيْ هُودُ عَزِيرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ
ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْ قَبْلُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْزَلَ يَوْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ
وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ
وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
سُبْحَانَهُ وَعَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ [المائدة: ٣٠، ٣١]، فَيِنَّ

كذب ما في كتبهم من انحرافات عقدية وعبادية وغيرها.

فهذا التصديق والهيمنة فيها من دلائل فخامة هذا التنزيل
ورفعته ما لا يخفى، وهو دليل على أنه أفضل الكتب المنزلة،
وشمل خلاصة ما جاء فيها وزيادة، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا
لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]؛ ولذا كان أحسن الحديث:
﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٣٩]، وإذا استقر ذلك في
قلب العبد قرّ إليه لا إلى غيره ليكون به نجاته؛ ومن هنا خاطبنا
الله تعالى بذلك فقال: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ
رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥]، وهو بلا شك القرآن الكريم.

فهذا الشرف العظيم الذي خصّ الله تعالى به القرآن،

ينبغي أن يجعلنا أكثر اعتزازاً به، وتمسكاً بهديه، واليقين أنه مصدر تميزنا، وسر قوة الأمة وخلودها، فيزداد بذلك المؤمن تعظيماً ومحبة له، ولا يلتفت لما يبهرج من سَقَط الحضارات الغربية، أو يلقيه أعداء الأمة اليوم، من شكوك وشبهات حول بعض تعاليمه التي لم يفهموا سرها وعظمتها.



الحفظ الأبدي

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿فصلت: ٤١، ٤٢﴾.

لما كان القرآن الكريم خاتم الرسالات، ورسوله خاتم الرسل، تولى الله تعالى بنفسه حفظه، فصانه من عبث العابثين، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿الحجر: ٩﴾، فحفظه الله تعالى من الزوال والزيادة والنقصان والتحريف والتبديل، فلا يتطرق له الخلل على الدوام، وهذه ميزة ميزه الله تعالى بها بين سائر كتبه التي استحفظها لبعض خلقه؛ فبدلت وغيّرت، كما قال تعالى: ﴿بِمَا اسْتَحَفُّوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ [المائدة: ٤٤].

فلن ترى في الوجود كتاباً حُفِظَ جَنَابُهُ، وصينت كلماته، وقُطِعَ الريب في إمكانية تبديله كهذا الكتاب، قال تعالى: ﴿وَأْتَلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧]، فلا تسمع لدعاوي

الخائبين من الشيعة الروافض، ومن سار على ضلالهم الميين الذين يريدون أن يكذبوا الله في خبره، ويقولوا بخلاف ما أجمعت عليه القرون الأولى ومن تبعهم من الخلف، فكيف يبدل ما تولى الله تعالى حفظه؟! وقد توعد من يفكر في ذلك بقطع وتينه، قال تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٍ ﴿٤٧﴾ [الحاقة: ٤٣-٤٧].

فكان هذا الحفظ له في كافة المراحل، فجعل للسماء حين نزوله حرساً شديداً وشهباً؛ حتى لا تسترق الجنُّ السمع، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا مُلْتَأَةً مِنِّي حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ [الجن: ٨، ٩]، وجعل له حفظاً آخر في قلب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أثناء نزوله وتبليغه: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُجْعَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة: ١٦-١٧]، ثم تولى رب العزة - بذاته العلية وجلالة قدره - حفظه بعد اكتمال نزوله، ليستمر خلوده إلى أن يرفعه في آخر الزمان، وقد ظل القرآن عزيزاً خالداً مع امتداد هذه القرون الطويلة كما

أنزل، على الرغم مما تعرضت له الأمة في تاريخها من نكبات،
لندرك وجهاً آخر من أوجه شموخ هذا الكتاب العزيز؛ لتبقى
رسالة الإسلام خالدة بخلوده.



آية الرسالة الكبرى

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ مِثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۗ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

ما من رسول أرسله الله تعالى إلا وجعل له آية تدل على صدقه، وتؤيد دعوته، وجميع من أرسلهم كانت معجزاتهم حسيّة إلا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد جعل الله معجزته معنوية من خلال ما أنزله عليه من كتاب عزيز، جعله من جهة للهداية، ومن جهة أخرى آية الرسالة، قال تعالى: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ولذا كان رجاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تكون أمته أكثرهم تبعاً يوم القيامة، كما جاء في الصحيحين عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ؛ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَارْجُوا أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وقد تحدّاهم الله تعالى جميعاً أن يأتوا بمثله فعجزوا، قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم تحدّاهم بعشر سور مثله فعجزوا، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، ثم تحدّاهم بسورة مثله فعجزوا، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَاَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]، ثم تحدّاهم أن يأتوا بسورة من مثله، وقطع لهم بأنهم لم يفعلوا ولن يفعلوا فعجزوا، فكان ذلك برهاناً قاطعاً عن صدق الرسالة مدى الدهر، وحنة كافية لمن أراد الهدى، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]، ومن هنا كان من لم يهده القرآن، ويكفه ذلك آية وعلامة، لم يجد في سواه كفاية وهدى، قال تعالى: ﴿فِي آيٍ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠].

قال أحمد شوقي:

جاءَ النَبِيُّونَ بِالآيَاتِ فَانصَرَمَتْ
وَجِئْنَا بِحَكِيمٍ غَيْرِ مُنصَرِمِ
آيَاتُهُ كُلَّمَا طَالَ المَدَى جُدُّدٌ
يَزِينُهُنَّ جَلالُ العِتْقِ وَالقَدَمِ



تبيان لكل شيء

قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يفي بجميع حاجات الإنسانية، فيما يحقق صلاح أمر دينها ودنياها ومعادها، في الأحوال الفردية والجماعية، والعمرانية، وفي الجوانب العقدية والتعبدية، والأخلاقية والسياسية، والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، رحمة منه تعالى وفضلاً، وهذه خصيصة لا توجد في غيره، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾، وقال تعالى: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، هذا على القول بأن المراد بالكتاب فيها: القرآن الكريم، وفي السياق ما يدل عليه.

ولما كانت دلالة القرآن على كل شيء منه ما هو محكم ظاهر، ومنه ما هو متشابه خفي، يحتاج الوصول إليه إلى استنباط ونظر، ظلت جهود العلماء عبر التاريخ متصلة في استخراج علومه المتنوعة، التي يطول حصرها، ويصعب

عدها، حتى أصبح لا يوجد كتاب في تاريخ الإنسانية سجلت حول علومه كتباً، وألّف حوله العلماء مثل القرآن الكريم، فهو أوسع الكتب المنزلة علماً، وأوفاهها هدى، حوى كل أمر رشيد، ونهى عن كل شيء بغيض، وأمره كلها قائمة على العدل والرحمة والحكمة، كافياً لمن طلب الكفاية.

ومن هنا ينبغي أن ندرك عظمة هذا الكتاب؛ الذي لا يوجد كتاب حوى كل علم تحتاجه الإنسانية لرشدها غيره، مما يجعلنا ونحن نتلو آياته، ونبحث في هداياته أننا أمام بحر من العلوم لا ساحل له، ولا نهاية لهداياته، لا ينقطع له عطاء؛ ولذا نجد العلماء في كل عصر يهرعون إليه؛ كلما حلت بهم معضلة، أو نزلت بهم نازلة فيتدبرون القرآن ليجدوا الهدى منه، ولم يقل عالم أنه أحاط بعلمه؛ بل كل واحد منهم سجل عجزه، كلما تطورت علوم الحياة التطبيقية والعقلية كانت خلاصة ما توصلت إليه مصدق لما جاء فيه، وبرهان على أنه ممن وسع كل شيء علماً؛ كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

عظمة في أسمائه وصفاته

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ
وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].
القرآن الكريم تنوعت أسماءه وصفاته، وكل اسم أو صفة له
فهي تحمل دلائل العظمة والجمال عن هذا الكتاب المجيد،
وهذه الأسماء والصفات لكثرتها أفردتها بعض العلماء
بالتصنيف، إليك بعضاً منها:

فمن أسمائه (الكتاب)، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ
هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، حتى تعلم أنه إذا أطلق الكتاب فلا
يذكر غيره، فلا يوجد كتاب يداني صفاته فضلاً أن يساويه، ومن
أسمائه (الفرقان)؛ لأنَّ الله تعالى فرَّق به بين الحق والباطل،
قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ
نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ومن أسمائه (الحق)، فلا حق بغيره، قال
تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ
وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢]،

ومن أسمائه (العلم)، حيث جمع الله تعالى فيه سائر علوم الكتب السابقة وزاد عليها، قال تعالى: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ومن أسمائه (الهدى)، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١٣]، ومن أسمائه (النور)، قال تعالى: ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]، ومن أسمائه (الذكر)، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ الذَّكْرَ وَإِنَّا لَهُو لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وغيرها من أسماء كثيرة.

والقرآن كما تجلت العظمة والجمال في أسمائه؛ تجلت في صفاته، من ذلك وصفه بأنه كتاب (كريم)، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧]، و(عظيم)، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، و(حكيم)، قال تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ [يس: ٢]، و(مجيد)، قال تعالى: ﴿قَدْ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ [ق: ١]، و(عزيز)، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]، وغيرها من صفات كثيرة، كل واحدة منها لو تأملها العبد لكفت في الدلالة على عظمة القرآن، ونهت على جليل فضائله، ودفعت للإقبال

على تعلمه وتعليمه؛ لأن تعدد الأسماء الحسنی والصفات العلی تدل على عظمة المسمى، فكيف إذا ذكر للمسمى أكثر من مائة وصف، كل وصف بلغ في الحسنی كماله، كوصفه بأنه: (نور وروح)، و(حق وهدى)، و(شفاء ورحمة)، و(كريم وحكيم)، و(عظيم ومجيد)، وغيرها من صفات..



كتاب حكيم

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨].

القرآن كتاب حكيم، تفيض الحكمة في كل آياته، وكيف لا يكون كذلك وهو منزل من حكيم حميد عليم خبير، قال تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٍ أَحْكَمَتَّ آيَاتُهُ وَتُرَّ فَضِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلَقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]؛ ولذا فهو كتاب محكم حكيم تتجلى معاني الحكمة في كل جوانبه من حيث مضمونه، وطريقة توجيهه، وترتيب أولوياته، وتنوع أساليبه وغيرها.

ولما جمع القرآن كل معاني الحكمة حتى أصبحت نعتاً لا تنفك عنه؛ وصفه الله تعالى في عدد من المواضع بالحكيم، قال تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، وقال تعالى: ﴿الرَّ ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [١-٣]، وقال تعالى: ﴿يَس ١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ١، ٢]، ومن كمال حكمته لا تزيغ به الأهواء،

ولا تلتبس به الألسن، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يملئه الأتقياء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من عَلِمَ عِلْمَهُ سَبَقَ، ومن قال به صدق، ومن حكّم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم، ما اتخذه عبد دليلاً إلا نال به صفات الكمال البشري، وتحققت له السعادة السرمدية؛ لأنّ به يصاب الحق في الاعتقاد والقول والعمل، ويقوم السلوك، وتسمو الأرواح والنفوس، فهو الكتاب الذي يصنع الحكماء ويؤتي الحكمة؛ ولذا قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩]: «الحكمة فهم القرآن الكريم» رواه الطبري في تفسيره، فهو ينبوع الحكمة والرشد، المسدد في القول والعمل، الناهي عن الفساد والهوى، فمن جعل القرآن منطلقه كانت الحكمة دثاره، وهو حكيم الأرض حقاً.

ومن أدرك كمال حكم القرآن الكريم؛ ما اشتغل بسواه من كتب لبعض الفلاسفة والمفكرين الغربيين، وغيرهم الذين يسمون بالحكماء، ولَعَلِمَ تفاهة تلك الآراء؛ لأنه سيدرك أنه ما من خير إلا وقد بينه الله تعالى، ودعا إليه ورغّب فيه، وذكر من

جوانب الحكم والمصالح التي تحث عليه، وما من شر وفساد إلا وقد بينه ونهى عنه وحذر منه، وذكر الأسباب المنفرة عن فعله وعواقبها الوخيمة، فمن وفق إليه فقد وفق لطريق الحكمة التي وعد الله من سلكها بخير كثير ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].



ذكر مبارك

قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

قيمة أي كتاب تظهر من خلال ما يحقق من نفع ويتركه من أثر، ومن أعظم ما وصف الله تعالى به كتابه أنه «كتاب مبارك» بمعنى: كثير البركات، خيره دائم، ومنفعته متصلة في الدنيا والبرزخ والآخرة، وعلومه متنوعه، وهداياته غير متناهية، وثواب تعلمه أو تعليمه عظيم، من تمسك به حلت عليه من بركاته ما به تتحقق له سعادة الدنيا والآخرة؛ ولذا نص الله تعالى على ما يتحقق باتباعه من الخير، قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، فمن بركته أنه يؤلف القلوب ويشفيها، ويزكي النفوس ويصلحها، مرشد للحق، هادم للباطل، طارد للشياطين، محقق للعدل والرحمة، رافع للذكر، لا ينكر ذلك إلا مكابر، قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، عمّت بركته فشمّل جميع ما احتوته

الكتب السابقة وزاد عليها، قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢].

فمن عرف بركة هذا الكتاب في أصله ومصدره، ومعانيه وعلومه، أدرك كذلك عظمة بركته على من يتلوه لنفسه أو في بيته، أو يستمع إليه ويتدبره، ويتعلمه ويعلمه، ويقوم بخدمته، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، فهو كتاب كثير خيره على من صحبه واتبعه وعمل به، ووهب حياته لخدمته، فما اشتغل به عبد في الحياة عن إيمان وصدق إلا كانت عاقبته حسنة، وسيرته شريفة، وحياته طيبة كريمة، ونفسه منسرحة، والبركات تفيض عليه في كل جوانب حياته؛ بل في كل يوم يجد زيادة ونماء، ومن جرب بصدق عرف، وكيف لا تكون حياته كذلك؟! وهو ينعم بهذه الصحبة الربانية المباركة، بل بقراءة سورة واحدة تحل البركات، كما جاء في صحيح مسلم عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَأُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ».



ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ

قال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧].

من أعظم خصائص هذا الكتاب المجيد؛ عموم رسالته وشمولها للإنس والجن على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، وتنوع بلدانهم، وقرونها، لا كما يريد أن يصوره بعض أعداء الملة فيجعلونه للعرب خاصة، فهو نزل بلسان عربي مبين، وكان هداه للعالمين إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ومن هنا كان خطابه موجهاً للإنسانية كلها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

هو كتاب يحكي تاريخ الإنسانية من خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهبوطه للأرض إلى آخر رسول أرسل للناس، وبيِّن للإنسانية أصلها الواحد الذي ترجع إليه، ويهدم فوارق الشعوبية والقبلية وغيرها ليؤسسها على قواعد متينة، ويهديها

طريقاً مستقيماً في الحياة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهو كتاب واحد، خاطب الله تعالى به الثقلين الجن والإنس على امتداد الزمان والمكان، فالله هو رب العالمين، والقرآن تنزيل رب العالمين الذي هو وحده يعلم ما يصلح العالمين، لا يتقيد هديه بزمان ولا مكان، ولا جنس ولا لون، يهدي الأنام إلى أصح العقائد وأفضل القيم والأخلاق، وأهدى الأحكام التي بها تستقيم حياتهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ٢]، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيمُهَدَاهُمْ أقتَدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرِي لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فمن فهم هذا المعنى عرّف عظمة هذا الكتاب، ودين الإسلام، وعمل لخدمة رسالة جعلها الله تعالى للعالمين، حتى تنعم برحمته ونوره وهدايه.

روح من أمر الله تعالى

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

فالله تعالى أحياناً بروحين: روح للجوانب الحسية، وهي التي بها حياة الأجساد، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، وروح معنوية بها تكون حياة القلوب، قال تعالى: ﴿يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: ٢]، والمراد: ينزل الملائكة بالوحي على من يشاء من عباده المرسلين، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾.

فالقرآن هو الكتاب الوحيد الذي يحيي القلوب، ويبعث روح الحياة الإيمانية في الكون، ولذا خاطبنا الله تعالى بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا

فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴿[الأنعام: ١٢٢]﴾،
 فكما أن الأرض تحيا بوابل السماء كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى
 الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ
 مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، فكذلك تجد الأمة هامة
 هائمة في ضلالها بغير قرآن، فإذا أشرق فيها نور القرآن اهتزت
 وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، كما كانت أمة العرب بغير
 قرآن هامة، فلما نزل عليها الوحي أخرجت خيرة رجال
 الهدى للناس.

ومن خلال ما سبق يظهر لنا فضل هذا الكتاب، وأثره
 وقيمه في حياة الفرد والجماعة، فأكمل الناس حياة أكملهم
 له اتباعاً واستجابة، وأعظم الأمة رفعة وشموخاً أعظمهم به
 حياة؛ ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما جاء في صحيح مسلم:
 «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»، فكل
 من أقبل عليه؛ رفعه وأكرمه، وأعزه وأحياه حياة طيبة، ومن
 أعرض عنه، أو آمن ببعضه وكفر ببعضه، أذله الله تعالى وأشقاه
 وأخذته، قال تعالى: ﴿أَفَتَوْمَنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ
 بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿البقرة: ٨٥﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن
ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿طه: ١٢٤﴾.



ولكن جعلناه نورا

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

الله تعالى أنار الوجود بنورين ليهتدي بهما العبد، نور حسي من خلال الشمس والقمر، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]، ونور معنوي من خلال الكتاب والسنة، وقال تعالى: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

فالنور الحسي لهداية الأبصار، والنور المعنوي لهداية البصائر، وهو الأهم، لأنه هو الذي به يبصر العبد الحق، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ

وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿المائدة: ١٥، ١٦﴾، وقال تعالى: ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿إبراهيم: ١﴾، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿الحديد: ٩﴾.

فهذا النور هو الذي يخرج الله به أوليائه من ظلمات الضلال إلى نور الهدى، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩]، وهو الذي يوصل لفلاح الدارين، قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وهو النور الذي يمشي به المؤمن في الناس على بصيرة، قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وهديه هو النور الذي يمشي به المؤمن في الصراط

يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢].

فوصيتي لك أن الحياة مظلمة فلا تسر فيها بغير نور الله
تعالى؛ إذ إن من لم يجعل الله له نوراً منه فما له من نور، فالقرآن
هو النور الذي أضاء لأولياءه طريقاً مشرقاً للهدى.



يهدي للتي هي أقوم

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الاسراء: ٩].

كانت الإنسانية في حيرة، وتخط في العقيدة والعبادة والأخلاق، وتمشي مُكَبَّةً على وجهها، دون صراط مستقيم، ومنهج قويم يصلح حياتها، ولن تستطيع بعقولها القاصرة، وأهوائها المَعْوَجَّةَ الوصول إلى ما يحقق سعادتها، فكان من كمال عناية الله تعالى بخلقه، وعظيم نعمته عليهم؛ أن أنزل عليهم خير كتبه القرآن الكريم؛ ليهديها من خلاله للتي هي أقوم في سائر نواحي حياتها، بما يحقق سعادتها وصلاحها، وأمنها، واستقرارها، وازدهارها، ويحفظها من السبل المَعْوَجَّةَ والمنحرفة، التي لا تجد معها الإنسانية إلا الشقاء والعنت، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤، ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِّن

اللَّهُ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ
رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾
[المائدة: ١٥، ١٦].

فكل من أراد الهدى في حياته فعليه أن يسأل نفسه؛ أين هو من هدي القرآن؟! ولا ينبغي أن يضيع وقته وجهده فيما لا يحقق ما يريده، بل عليه أن يقبل على تلاوته وتدبره، وتعلم هديه حتى يهديه إلى الحق والرشد، كما قالت الجنُّ يوم أن أقبلت عليه، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن: ١، ٢]؛ وهدايته عامة تامة كاملة لا عوج فيها؛ ولكن

المصيبة اليوم فيمن يتبغي الهدى في غيره من أبناء المسلمين،
فالقرآن أنزل من أجل غاية كبرى وهي: هداية الإنسانية للتي
هي أقوم، فمن ابتغى الهدى في غيره فقد ضلَّ ضلالاً مبيئاً.



لا يضلُّ ولا يشقى

قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١١٧].

القرآن الكريم له فضائله كثيرة يصعب حصرها، وهو منه ربانية عظمى، ومن عظيم فضله وسعة خيره ما وعد الله تعالى به متبعه من مغانم، منها: ما يتحقق به من الهدى والسعادة، والإبعاد من الضلال والشقاء، قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ فالضلال والشقاء متلازمان، وبنفيهما يثبت عكسهما، وهما الهدى والسعادة وهما متلازمان؛ لأن ثمرة الهدى السعادة، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فيما رواه عنه الطبري في تفسيره: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَاتَّبَعَ مَا فِيهِ، هَدَاهُ اللَّهُ مِنَ الصَّلَاةِ، وَوَقَاهُ سُوءَ الْحِسَابِ».

ومن فوائد اتباعه كذلك ما يتحقق لصاحبه من الأمان والسرور، الذي ثبت من خلال بيان سلامة متبعه من الخوف والحزن، قال تعالى: ﴿فَمَنِ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، كما وعد الله تعالى متبعه برغد

العيش، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]، كل ذلك من أعظم المرغبات في اتباع القرآن الكريم، الذي يدفع الله تعالى به عن العبد كل مكروه، ويسهل له به حصول كل مرغوب.

ومن لم يتبعه فكفر وكذب به وأعرض عنه، حصل له عكس ما وعد الله تعالى به، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]، وهذا الضنك هو ضيق عام يلحقهم في عيشتهم، فيفسدها عليهم مهما كانت النعم تحيط بهم، فنجد الواحد منهم في حرص وطمع، وجزع وهلع دائم، لما في نفوسهم من قلق زوال النعمة، أو زوالهم من الدنيا، ولما تجره المعاصي والخبائث على نفوسهم من الذل والهموم والغموم والآلام المتصلة، ولما شغلوا بها من إرهاق في جمع الحطام الفاني، ولم ينعموا بما يمكن أن يجدوا من لذة البذل والإعطاء الذي هو بهجة الدنيا وسعادتها، كما هم في ضنك هذه الدنيا، التي لا يوسعها إلا الإيمان برب النعمة، وما عند الله من عظيم الجزاء في الآخرة، ولما كانت حياتهم كلها آلاماً؛ أمرنا الله

تعالى بالإعراض عنهم، قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

والقرآن لا يشقى العبد معه؛ لأنه ليس فيه تكليف يشق على المكلفين، بل هو شرع ميسر مرفوع عنه الحرج والمشقة من رحمان الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِن حَرَجٍ﴾ [الحج: ٨٧]، بل جاء لعلاج المشقة التي كانت على من قبلنا: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فهو شرع ميسر، متوافق مع الفطرة السليمة، والعقول المستقيمة، ما أمر الله تعالى فيه بأمر إلا وكانت مصلحته خالصة أو راجحة، وما نهى عن شيء إلا وكانت مفسدته خالصة أو راجحة، ليس فيه تكليف لا يطاق، أو يجلب على العبد العناء والمشاق، قال تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ٢]، قال قتادة فيما رواه عنه الطبري في تفسيره: «لا والله ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمة ونورا، ودليلاً إلى الجنة»، فكيف بعاقل يبعد عن مصدر السعادة والإسعاد له ولأمته؟!»

شفاء ورحمة

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النحل: ٨٢].

مما أظهر الله تعالى به فضل كتابه، ورغب عباده للإقبال عليه، وصفه بأنه شفاء، شفاء للأمراض المعنوية والحسية؛ ولذا قسم العلماء هذا الشفاء إلى قسمين:

الأول: شفاء لما في الصدور: وهذا نص الله تعالى عليه؛ لأنها هي مستقر الإيمان، والهدي، وموجهة الجوارح، وبصلاحها يصلح القول والعمل، ويفسد بفسادها، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، فهو شفاء لما في القلوب من داء الكفر والشرك والنفاق، وجميع العقائد الفاسدة، والشهوات المانعة عن الانقياد للحق، وأمراض الشبهات الصارفة عن العلم اليقيني، وشفاء لها من العمى والجهالات المضلة، والأفكار الباطلة التي تورث الشكوك، وشفاء لما

فيها من الكبر والبغضاء، والغل والحسد الذي يورث الشحنة والشقاق وسوء الأخلاق، وشفاء للوساوس الشيطانية، وكل أنواع أمراض القلوب.

والثاني: شفاء لأمراض الأبدان: وقد أخذ العلماء هذا من عموم الشفاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً^{٤٤} وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:

٤٤]، وبما ورد في السنة النبوية من استشفاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به إذا اشتكى، كما أخرج البخاري عن عُرْوَةَ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَخْبَرَتْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا اشْتَكَى نَفَثَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ وَمَسَحَ عَنْهُ بِيَدِهِ، فَلَمَّا اشْتَكَى وَجَعَهُ الَّذِي تُوفِّي فِيهِ؛ طَفِقْتُ أَنْفِثُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ الَّتِي كَانَ يَنْفِثُ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهُ»، وقد أقر أصحابه على ذلك كما جاء في صحيح البخاري في رقية سيد القوم الذي لدغ بعد أخبروه بما حدث فقال لهم: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَةٌ؟ ثُمَّ قَالَ: قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا»، وكم رأينا من أمراض وأوجاع عجز عن علاجها الأطباء تحقق الشفاء منها ببركة الاستشفاء بالقرآن؛ ولكن ينبغي لنا أن نعلم أن ما

يؤهل للاستشفاء بالقرآن: قوة الإيمان به، والتصديق بما أخبر الله عنه، والإقبال للتداوي به عن قناعة و يقين، فماذا يساوي داء أمام كلام رب الأرض والسماء؟! ومن هنا خصصت الآية أنه شفاء للمؤمنين، أما المعرضون عنه فلا تزيدهم إلا خسارة، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [النحل: ٨٢].

فالقرآن الكريم وصفه الله تعالى بأنه شفاء ولم يصفه بأنه دواء، حتى نتيقن الشفاء العام به؛ لأن الدواء قد لا يشفي، بل يجب علينا أن نعلم أنه لا يوجد شفاء أكمل ولا أعظم منه في الحياة في جميع الأدوية القلبية والبدنية، وأن البحث عن شفاء لأمراض مجتمعاتنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والنفسية وغيرها؛ في غير القرآن لن يزيدنا إلا أمراضاً، وتساقط النظريات الغربية وفشلها المتعاقب يؤكد هذه الحقيقة، فكيف نغفل عن كتاب وصفه الله تعالى بالشفاء؟! ثم أتبع ذلك بوصف الرحمة؛ لأنها تعني كمال العناية والخير؛ فما من مرض أو علة إلا وهو يوضح لك وصفها، وعلاماتها، وأسبابها، وآثارها، وكيفية علاجها بأحسن وأكمل أسلوب، يوصل إلى الشفاء التام بصورة لا تجدها في سواه.

تجارة لن تبور

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

العيش مع القرآن الكريم استماعاً، وتلاوةً، وحفظاً، وتدبراً، ومدارسةً، وعملاً به، هو التجارة الربحية، والغنيمة العظيمة، فالفضل والخيرية لمن رجا هذه التجارة وعمل لها، فقد جاء في صحيح البخاري عن عثمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»، وفي رواية: «إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»، وقد وردت الأدلة الكثيرة التي تفصل الجوانب المتنوعة من الربح مع القرآن، من ذلك:

أولاً: الاستماع إليه: رحمة، وهداية، وزيادة إيمان، ذكر القرطبي في تفسيره عن الليث قال: «يُقَالُ مَا الرَّحْمَةُ إِلَى أَحَدٍ بِأَسْرَعٍ مِنْهَا إِلَى مُسْتَمِعِ الْقُرْآنِ، لِقَوْلِ اللَّهِ جَلَّ

ذِكْرُهُ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

ثانياً: تلاوته: ثواب عظيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [٢٣] لِيُؤْفِقَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠]، وكيف لا يكون تجارة رابحة والحرف بعشر حسنات؟! وقد جاء في صحيح مسلم عن عقبه بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَىٰ بُطْحَانَ أَوْ إِلَىٰ الْعَقِيقِ فَيَأْتِي مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِيهِ غَيْرُ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ»، فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: «أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ

اللَّهُ عَزَّجَلَّ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ.»

الثالث: مدارسته: غنيمة عظيمة، حيث هي سبب لنزول السكينة وغشيان الرحمة، فقد جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَعَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ.»

رابعاً: الماهر به: فالماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة، سواء كان ماهراً في تلاوته لما جاء في صحيح مسلم عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعَعَّ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ»، أو كان ماهراً في حفظه لما جاء في صحيح البخاري عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مِثْلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ حَافِظٌ

لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَتْلُوهُ وَهُوَ يَتَعَاهدُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ فَلَهُ أَجْرَانِ».

خامساً: العمل به: فالعمل بالقرآن سبب فلاح الدارين، قال

تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ؕ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:

١٥٧]، وجاء في صحيح مسلم عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ».



حبل نجاة لمعتصم

قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

أي شخص في الحياة تكتنفه مخاطر متنوعة؛ هو يبحث عن سبيل نجاة لنفسه ومن حوله، وقد أمرنا الله سبحانه في القرآن الكريم باعتصامين؛ بهما نجاة العبد وهما:

الأول: الاعتصام بالله: قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]، من خلال إخلاص العبودية له والتوكل عليه وحده لا شريك له.

والثاني: الاعتصام بكتابه: قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ ﴿٧٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَنَسُدُّ لَهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤، ١٧٥].

وقد جاء في صحيح مسلم عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَحَدُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،

هُوَ حَبْلُ اللَّهِ، مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلَالَةٍ».

فلا اعتصام بحبل الله يعصم العبد من الضلالة والهلاك وكل أسباب الفشل والضياع، ويُقيمه على طريق الأمن والهدى، فهو عصمة لمن اعتصم به، حبل نجاة لمن اتبعه؛ لأنه عروة وثقى لا انفصام لها لمن تمسك به، قال الشاعر:

يا أمتي القرآن حبل نجاتنا
فتمسكي بعراه كي لا نغرقا
ولتجمعي حول الكتاب شتاتنا
حتى نزيل تناحراً وتفرقا
ولتجعليه محكما في أمرنا
وثقي بوعد الله أن يتحققا

فلا اعتصام به يكون بجعله منهجاً لحياتنا دون غيره من آراء الرجال وأهوائهم، وهو ضرورة لعصمتنا من الضلال، وتحقيق سعادتنا في الحياة، ونجاتنا في يوم المعاد، فكيف بعائل ألا يتمسك بما فيه نجاته؟! ولا نجاة له بسواه، وهو

الذي أمر بكل معروف، ونهى عن كل منكر، وأقام كل حق، وأبطل كل باطل، ودل على كل خير، ونهى عن كل شر، وبه جمع الله القلوب بعد أن وحد به عقيدة الأمة، ومنهجها، وتصوراتها للحياة.

فلا بد للمؤمن أن يدرك أن الدين كله في الاعتصام بالله وبحبله، علماً وعملاً، وإخلاصاً واستعانة، ومتابعة واستمراراً على ذلك إلى يوم القيامة.



كتاب فيه ذكركم

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا

تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]

من أعظم الأمور التي تحث على الإيمان بالقرآن الكريم، وتعلمه وتعليمه والعمل والتمسك به قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: عزكم وشرفكم وفخركم وعلوكم، فبينت الآية أن الأمة لو آمنت به، واتبعت هديه، شرف قدرها بين الأمم وعلا شأنها، وكيف لا يكون ذلك وهو أشرف كتاب أنزله الله تعالى؟! كما قال تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، أي: ذي القدر العظيم والشرف النبيل.

وقد ظهر شرفه في أمة العرب عند نزوله؛ فتأمل كيف حولها من أمة عداة وتمزق وضياع؛ إلى أمة وحدة ورحمة وعز؟! سادت في الناس بعلمها وحضارتها النابعة من هدي هذا الذكر الحكيم، قال تعالى مذكراً بذلك: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ

إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا
وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ
اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ففي
طيلة تاريخ الأمة كانت ثمرة التمسك به علواً ورفعة، وثمرة
التهاون به هواناً وضعفاً ومقتاً وذلاً؛ ولما كان الغفلة عن ذلك
عدم عقل ووعي؛ ختم الله تعالى الآية التي توضح ذلك بقوله:
﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لاستقباح الإعراض عنه.

ولما كان القرآن شرفاً لمن اتبعه وعمل بما فيه، لما فيه من
سمو العقيدة، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال التي يسمو
بها كل من تمسك به؛ أمر الله تعالى رسوله والأمة تبعاً له بقوله
تعالى: ﴿فَأَسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾
وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣، ٤٤]،
وكان من القبيح لكل ذي علم من أبناء الأمة؛ أن لا يهتم بهذا
الكتاب الذي هو شرفه وشرف أمته وعزها.

ومن هنا كان القرآن لكل ذي علم من أبناء الأمة؛ ملاذاً
وملجأً يبذل الغالي والنفيس في تعلمه وتعليمه، وتوصية الناس

للتمسك به، وبث هديه في العالمين، وهذا من باب ذكر هذه
النعمة وشكرها ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ
الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١].



الشَفِيعُ المُشَفِّعُ

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأِذِنُ اللَّهُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر: ٣٢-٣٣].

يوم القيامة يوم شديد الخطب عظيم الكرب، كل إنسان يبحث فيه عن ما تكون به نجاته وسلامته، ومن فضائل القرآن الكريم الكبيرة التي تتجلى في ذلك اليوم، ما يتحقق لأهله من اصطفاء وتكريم، فقد ثبتت بالأدلة الكثيرة التي تبين أن القرآن يشفع لمن صحبه؛ تلاوة وتدبراً وعملاً وكان هو همه وشغله، وإن كان ظالماً لنفسه أو مقتصدًا حتى يدخله الجنة، فقد جاء في صحيح مسلم عن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «أَقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، أَقْرَأُوا الزَّهْرَ أَوْ يَنْ: الْبُقْرَةَ

وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَّائَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، أَقْرَأُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَتٌ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ».

وقد صح في مسند الإمام أحمد وغيره عن عبد الله بن عمرو **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** أن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قال: «الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيُّ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفَّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفَّعْنِي فِيهِ، قَالَ: فَيُشَفَّعَانِ؛ بل السورة الواحدة تشفع للعبد يوم القيامة كما صح في السنن وغيرها قوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «إِنَّ سُورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ، وَهِيَ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ»، وقد ورد موقوفاً عن ابن مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: «القرآن شافعٌ مُشَفَّعٌ، وما حل مصدقٌ، فمن جعله أمامه، قاده إلى الجنة، ومن جعله خَلْفَ ظهره، قاده إلى النار».

وقد قال الشاطبي في «الشاطبية» في ذلك:

وَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ أَوْثَقُ شَافِعٍ
 وَأَعْنَى غِنَاءٍ وَاهِبًا مُتَفَضِّلًا
 وَخَيْرُ جَلِيسٍ لَا يُمَلُّ حَدِيثُهُ
 وَتَرْدَادُهُ يَزِدَادُ فِيهِ تَجَمُّلاً
 وَحَيْثُ الْفَتَى يَرْتَاعُ فِي ظُلْمَاتِهِ
 مِنَ الْقَبْرِ يَلْقَاهُ سَنًا مُتَهَلِّلاً
 هُنَالِكَ يَهْنِيهِ مَقِيلًا وَرَوْضَةً
 وَمِنْ أَجْلِهِ فِي ذُرْوَةِ الْعِزِّ يَجْتَلَى

فمن أدرك هذه الحقيقة الإيمانية أدرك فضل هذا القرآن،
 وشرف صحبته، وأن حياته مع القرآن هي الفوز في الدنيا
 والآخرة.

ومن أدرك كل هذه المحاسن والفضائل التي ذكرناها
 وغيرها، عرف أن من استغنى عن الماء الذي منه حياته، لن
 يستطيع الاستغناء عن كلام الله تعالى الذي به حياته الحقيقية،
 ونجاته في الدنيا والآخرة، وعلم أن الله تعالى اختصه بأعظم

غنى وأبلغ كفاية في الحياة؛ ولذا خاطب الله تعالى رسوله بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَأخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: ٨٧-٨٨]، فكل نعمة وإن عظمت فهي بجواره صغيرة ضئيلة، ويكفي في إدراك فضله أن تعلم أنه قائدك لأسعد الحالات، وأعظم المكرمات، وأعلى الدرجات والمقامات.



ختاماً

إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَدَّبُّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

بعد تلك السياحة العلمية الإيمانية المختصرة في عظمة القرآن الكريم وجلاله وجماله، وفضله ومنزلته، وأهمية العيش في ظلّاه للمؤمن بصورة خاصة، نقول في خاتمة هذه الرسالة:

أن الخسران المبين في الإعراض عن كلام رب العالمين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقَمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، أو نسيانه، قال تعالى عن المشركين: ﴿تَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨]، أي: هلكتي، أو هجرانه بأي نوع من أنواع الهجران، وقد ورد التحذير الشديد عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَدَّبُّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾، فكيف يهجر عاقل كلام ربه؟! روح الحياة ونورها ليس له بغيرهما روح ونور، كتاب يهدي للتي هي أقوم، لا يضل متبعه ولا يشقى،

كتاب جعله الله تعالى شفاء ورحمة، وعزاً وشفراً لهذه الأمة.

إذا كان هجر القرآن هي شكوى حيينا إلى الله فمن الخسران أن يقع منا ذلك؛ فلنحذر من هجره سواء هجر إيمان به وتصديق، وهو أحد أركان الإيمان الستة، ويكون حظنا منه التكذيب، قال تعالى: ﴿فَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨١ - ٨٢]، أو هجره هجر استماع إليه بالانشغال بسماع غيره من اللهو والغناء، أو هجره هجر تلاوته فلا نختمه في الشهر على الأقل إلا مرة، كما جاء في صحيح البخاري قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي شَهْرٍ، قُلْتُ: إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً، حَتَّى قَالَ: فَاقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ وَلَا تَزِدْ عَلَيَّ ذَلِكَ»، أو هجره هجر تدبره وتفهمه، ومعرفة ما جاء فيه من الهدى في العقيدة والأخلاق والعبادات والأحكام وغيرها، قال تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، أو هجره هجر عمل بعدم فعل أوامره وترك نواهيه، فإن الله تعالى ما أنزله إلا للتبوع ما جاء فيه، قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢]، أو هجره هجر تحاكم

إليه في كل شؤون حياتنا؛ بالعدول عنه إلى القوانين الوضعية، وذلك من صفات المنافقين، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ۗ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦٠ - ٦١]، أو هجره هجر تداوي واستشفاء به من أمراض القلوب والأبدان؛ باللجوء إلى السحرة والدجالين والمشعوذين للتداوي بما عندهم من طلاسم وغيرها، فأى نوع من أنواع الهجر يقع له هو خسارة علينا، وإن كان بعضه أشد من بعض، فبسبب بُعد الناس اليوم عن القرآن قست قلوبهم، وتسلط الشيطان عليه، ودخل الوهن في عقيدتهم ودينهم، وقلت الرحمات والبركات، وكثرت المصائب والنكبات، فهذه الرسالة هي صرخة محبب لأحبائه بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦].

فلنعظم القرآن حقَّ تعظيمه، علمًا واعتقادًا وعملاً ودعوةً
لنيل ما وعد الله تعالى به من خيرٍ كثير، وحتى نستطيع أن نهزم
كل عدو غاشم من شياطين الجن والإنس، ولا نكون ممن
قست قلوبهم، وانهزمت نفوسهم، واستلبت شياطين الجن
والأنس عقولهم عن الصراط المستقيم؛ بسبب بُعدهم عن كلام
ربهم **جَلَّ وَعَلَا** الذي لا يثبت أمامه شيء من صنع البشر وأقوالهم.

جعلني الله تعالى وكل من قرأ هذه الرسالة، وساهم في
نشرها، من أهل القرآن الذين هم أهل الله تعالى وخاصته،
الفائزين بجنت ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، من
غير حساب ولا عقاب، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله
على توفيقه ومنه وإكرامه.

تم الانتهاء منها في يوم السبت الموافق: ٣٠ رمضان ١٤٤١ هـ

ببلد الله الحرام: مكة زادها ربي شرفاً



فهرس الموضوعات

- ٥ المقدمة
- ٧ كلام الله جَلَّ جَلالُهُ
- ١٠ عليٌّ مكنون
- ١٢ جلال النزول
- ١٥ قول ثقيل
- ١٨ لا ريب فيه
- ٢١ مصدق ومهيمن
- ٢٤ الحفظ الأبدي
- ٢٧ آية الرسالة الكبرى
- ٣٠ تبيان لكل شيء
- ٣٢ عظمة في أسمائه وصفاته
- ٣٥ كتاب حكيم
- ٣٨ ذكر مبارك
- ٤٠ ذكرٌ للعالمين

- ٤٢..... روح من أمر الله تعالى
- ٤٥..... ولكن جعلناه نورا
- ٤٨..... يهدي للتي هي أقوم
- ٥١..... لا يضلُّ ولا يشقى
- ٥٤..... شفاء ورحمة
- ٥٧..... تجارة لن تبور
- ٦١..... حبل نجاه لمعتصم
- ٦٤..... كتاب فيه ذكركم
- ٦٧..... الشفيع المُشَفِّع
- ٧١..... (ختاماً) إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا
- ٧٥..... فهرس الموضوعات





مؤسسة النبا العظيم

alnmaa.com  + 966 550427304 

    alnmaa@gmail.com 

للتواصل مع المؤلف

proftaha11@gmail.com